الباب السابع عشر

في جوامع الكلم

الرسول أوتي جوامع الكلم:

ويروى أن النبي محمداً ﷺ، قال: (نصرت بالرعب، وأوتيت جوامع الكلم)، وذلك أن النبي ﷺ، كان يتلفظ باللفظ اليسير الدال على المعاني الكثيرة، فالرسول أعطي جوامع الكلم.

وقيل : ثلاثة تدل على عقول أصحابها : الرسول يدل على عقل مرسله، والهدية تدل على قدر مهديها، والكتاب يدل على عقل كاتبه.

وسمع النبي ﷺ من عمه العباس بن عبد المطلب كلاما فصيحا، فقال: بارك الله لك يا عم في جمالك، أي في فصاحتك.

إرحموا عزيز قوم ذلّ:

يروى أن الرسول الكريم ﷺ : يضرب المثل في المعاملة الطيبة، بوصيته المشهورة في أسارى بدر الكبرى،إنه يعظم كرمه ووافر رحمته لما أعطى الأسارى لأصحابه يأتون بهم إلى المدينة المنورة، موزعين بينهم قال لهم : «**إستوصوا بالأسارى خيراً**»، ووصاية الرسول ﷺ بالأسارى خيراً يدل على كرمه، فبعد كل ما صدر منهم ضد الإسلام والمسلمين في مكة المكرمة، ومحاربتهم في بدر، وموقفهم العدائي خلال خمسة عشر عاماً يوصي أصحابه بالأسارى خيراً.

وها هو ذا أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير أول سفير لرسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة، وقد كانت سفارته لأهل المدينة خيراً وبركة، وللإسلام قوة وسراجاً منيراً، أنار القلوب وأضاء البيوت بنور الإيمان، فقد أسر أبو عزيز في غزوة بدر،إذ خرج كافراً ضمن جيش الكفار محارباً الله ورسوله، فقال أبو عزيز: مر بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار وقد أسر أسيرين أنا أحدهما، فقال مصعب للذي أسرني: يا أبا بصير شد يديك بأسيرك، فإن أمه ذات مال لعلها تفديه منك بأغلى الأثمان.

فقال أبو عزيز، فقلت لأخي مصعب: أهذه وصاتك بأخيك؟، فقال مصعب لي: لست بأخي، إنما أخي هذا الأنصاري المؤمن، لأن الله يقول: (إنما المؤمنون إخوة)، وأنت كافر، ومع ذلك، فلم يمنع الأنصار من أن ينفذوا وصاة رسول الله ﷺ في الأسارى خيراً.

معاملة الأسرى:

ذكر أبو عزيز بن عمير، قال: كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر إلى المدينة المنورة، فكانوا إذا قدموا غذاءهم أو عشاءهم خصوني بالخبز، وأكلوا التمر، لتوصية رسول الله ﷺ بنا معشر الأسرى، فما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا آثروني بها فاستحيي فأردها عليه، أو أعطيها غيره فيردها عليّ ما يمسها ولا يقبلها.

فسبحان الله، ما أكرم وأطوع أصحاب رسول الله ﷺ، لقد نال كرمه وفضله ورحمته أعداءه، ورضي الله عن المؤمنين الطيعين البررة الخيرين.

وجّه رسول الله ﷺ إلى طيء فريقاً من أصحابه، يقدمهم الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فخاف عدي بن حاتم الطائي، وهرب إلى الشام، وكان عدي بن حاتم من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ، فصبح علي بمن معه القوم، واستاق خيلهم، ونعمهم ورجالهم ونساءهم إلى رسول الله ﷺ، فلما عرض عليه الأسرى نهضت من بين القوم سفانة بنت حاتم الطائي، فقالت:

يا محمد: هلك الوالد وغاب الوافد، فإن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب، فإني ابنة سيد قومه، إذ كان أبي يفك العاني (أي يفك الأسير)، ويقتل الجاني (أي يقتل الظالم)، ويفشي السلام، ويحفظ الجار، ويحمل الذمار، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويحمل الكل، ويعين على نوائب الدهر، وما أتاه أحد في حاجة فرده خائبا، أنا ابنة حاتم الطائي.

فقال النبي ﷺ: «**يا جارية هذه صفات المؤمنين حقاً، ولو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه، خلّوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق**».

ثم قال ﷺ: «**ارحموا عزيزاً ذلّ، وغنيًّا افتقر، وعالماً ضاع بين جهال**» وامتن عليها بقومها، فأطلقهم تكريماً لها.

فلما أكرمها النبي ﷺ، استأذنته في الدعاء له، فأذن لها، وقال لأصحابه: اسمعوا وعوا، فقالت: أصاب الله ببرك مواقعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلا جعلك سبباً في ردها.

فلما أطلقها رسول الله ﷺ، رجعت إلى أخيها عدي بن حاتم، وهو بدومة الجندل، فقالت له: يا أخي ائتِ هذا الرجل قبل أن تعلقك حبائله، فإني قد رأيت هدياً ورأياً سيغلب أهل القبلة، ورأيت خصالاً تعجبني.

رأيته يحب الفقير، ويفك الأسير، ويرحم الصغير، ويعرف قدرالكبير، وما رأيت أجود ولا أكرم منه، فإن يكن نبيا فللسابق فضله، وإن يكن ملكاً فلن تزال في عز ملكه، فقدم عدي بن حاتم إلى رسول الله ﷺ فأسلم، وقد أسلمت سفانة بنت حاتم أيضاً.

إن تلك الصفات التي يفتخر بها العرب في الجاهلية، بخصوص حب الفقير وفك الأسير، مما جعل الرسول الكريم ﷺ يفك أسارى قومها، وقال: «**إرحموا عزيزاً ذلّ**» ولا شكّ كانت سفانة عزيزة في قومها، مما حداها أن تشجع أخاها عدي بن حاتم.

البديهة وأثرها:

وعرضت على المتوكل جارية شاعرة للبيع، فقال أبو العيناء، وهو ضرير يختبرها ويستجيزها: الحمد لله كثيراً، فقالت: حيث أنشاك ضريراً.

فقال أبو العيناء: يا أمير المؤمنين، قد أحسنت في إساءتها فاشترها، وقال المبرد محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي العماني، قلت لمجنون: أجزني هذا البيت الذي يقول فيه الشاعر:

أرى اليوم يوماً قد تكاثف غيمه ... وإبراقه فاليوم لا شك ماطر

فقال المجنون في الحال بديهة:

وقد حجبت فيه السحائب شمسه ... كما حجبت ورد الخدود المحاجر

وقال الهيثم بن صالح لابنه وهو يعظه: يا بني إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب، فرد الولد بقوله: يا أبتِ فإن أنا أكثرت وأكثرت، يقصد أكثرت من الكلام، وأكثرت من الصواب، فما تقولَ في ذلك، قال: يا بني ما رأيت موعوظاً أحق بأن يكون واعظاً منك، فبارك الله فيك.

وقال القاضي الشعبي، كنت أحدث عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي، وهو يأكل، فيحبس اللقمة، فأقول له: يا أمير المؤمنين أجزها أصلحك الله فإن الحديث من وراء ذلك، فقول: الله لحديثك أحب إلي منها.

واو أبي بكر الصديق:

ومر رجل بأبي بكر الصديق ﷺ، ومعه ثوب ،فقال أبو بكر ﷺ : أتبيعه؟، فقال الرجل: لا، رحمك الله، فقال أبو بكر ،لو تستقيمون لقوَّمت ألسنتكم. هلَّا قلت: لا (و) رحمك الله،فلذا تسمى هذه: (واو أبي بكر).

ومن ذلك ما حكي أن المأمون سأل يحيى بن أكثم عن شيء، فقال: لا وأيد الله أمير المؤمنين، فقال المأمون: ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها.

ووصف رجل رجلاً بالفصاحة والبيان فقال:

سحبان يقصر عن بحور بيانه عجزاً ويغرق منه تحت عباب
وكذاك قس ناطق بعكا ظه يعيا لديه بحجة وجواب

ما يستحسن من الكنايات:

ومما يستحسن من غريب الكنايات، الواردة على سبيل الرمز، وهو من الذكاء والفصاحة بمكان، ما حكي أن رجلاً كان أسيراً في بني بكر بن وائل، وعزموا على غزو قومه، فسألهم في رسول يرسله إلى قومه.

فقالوا لا ترسله إلا بحضرتنا، لئلا تخبرهم وتنذرهم باستعدادنا، فجاؤوه بعبد أسود، فقالوا : يمكنك أن ترسل هذا إلى قومك.

فقال له الأسير، أتعقل ما أقوله لك؟. قال: نعم، إني لعاقل، فأشار الأسير إلى الليل، فقال ما هذا؟. قال الليل، قال الأسير للعبد ما أظنك ولا أراك إلا غافلاً، ثم ملأ كفيه من الرمل، وقال: كم هذا ؟ قال:كثير ولكن لا أدري عدده، فقال له الأسير،أيها أكثر النجوم أم النيران؟ قال العبد: كل كثير، فقال أبلغ قومي التحية، وقل لهم:

يكرموا فلاناً يعني أسيراً كان في أيديهم من بني بكر بن وائل، فإن قومه لي مكرمون، وقل لهم إن العرفج قد دنا، وشكت النساء، وأمرهم أن يعروا ناقتي الحمراء، فقد أطالوا ركوبها، وأن يركبوا جملي الأصهب، بإمارة ما أكلت معكم حيساً، واسألوا عن خبري أخي الحارث.

فلما أدى العبد الرسالة إليهم قالوا:لقد جن الأعور،والله ما نعرف له ناقة حمراء، ولا جملاً أصهب، ثم ذهبوا إلى أخيه الحارث فقصوا عليه القصة فقال لهم أخوه: إن أخي أنذركم، ومن أنذر فقد أعذر.

تفسير قول الأسير:

أما قوله : قد دنا العرفج ، يريد أن الرجال قد استلأموا، ولبسوا السلاح . وأما قوله: شكت النساء، أي أخذت الشكاء للسفر، وأما قوله :أعروا ناقتي الحمراء، أي ارتحلوا عن الدهناء، وآركبوا الجمل الأصهب، أي تحصنوا بالجبل، وأما قوله: أكلت معكم حيساً أي إن أخلاطاً من الناس قد عزموا على غزوكم، لأن الحيس يجمع التمر والسمن والإ قط، فامتثلوا لأمره، وعرفوا لحن الكلام، وعملوا به فنجوا،وهكذا نفع قومه بنصيحته لهم، بمعارض الكلام.

تنبيه الأسير:

وأسرت قبيلة طيء غلاماً من العرب، فعلم أبوه بذلك،فذهب ليفديه، فتغالوا في فدائه، أي طلبوا في فدائه مالاً كثيراً، فقال أبوه: والذي جعل الفرقدين يمسيان ويصبحان على جبل طيء، ما عندي غير ما بذلته، ثم انصرف وقال:

لقد أعطيته كلاماً إن كان فيه خير فهمه، فقال له: إلزم الفرقدين، يعني في هروبك على جبل طيء، فكان الولد ذكياً فطناً، إذ فهم قول والده،وما أمره به أن يسلك ففعل وهرب فنجا.

وقال رجل حين سئل عن رجل وحالته فقال: ما رأيت فلاناً راكعاً ولا ساجداً، ولا مصلياً، فظن السائل أن الرجل قد انتهى به العصيان إلى ترك الصلاة، فقال المسؤول مفسراً قوله في الرجل: ما رأيت الرجل راكعاً أي عاثراً، فالراكع العاثر الذي كبا لوجهه، والساجد المدمن النظر المستمر فيه،والمصلي الذي يجيء بعد السابق،وهذا معروف في السباق لدى العرب، ومنه سباق داحس والغبراء.

فكانت العرب في الجاهلية تتخذ معاريض الكلام في المراسلات إذا حزبها أمر للتنبيه لمن يهمه الأمر، كما رأينا رسالة الأسير في بني بكر بن وائل، وهذا باب من الذكاء والفصاحة والفطنة، والإسلام حثّ على ذلك، حيث يقول الرسول الكريم ﷺ: «**إن في معاريض الكلام ما يغني عن الكذب**».